

موقف الاسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها

إذا اخذت كلمة "الاسلام" بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل اتباع الأنبياء. هكذا نرى نوحاً يقول لقومه " وأمرت ان أكون من المسلمين " (سورة ١٠ آية ٧٢) ويعقوب يوصي بنيه " ولا تموتن الا وانتم مسلمون " (سورة ٢ آية ١٣٢) وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : "نعبد الهك واله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق الها واحدا ونحن له مسلمون " (٢ : ١٣٣) وموسى يقول لقومه "يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين" (١٠ : ٨٤) والحواريين يقولون لعيسى "أما بالله واشهد بأنا مسلمون " (٣ : ٥٢) بل ان فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن قالوا "أما به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين " (٢٨ : ٥٣) وبالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على السنة الانبياء واتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية الى عصر النبوة المحمدية . ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ويبين لهم فيها انه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" (٤٢ : ١٣) ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء واتباعهم ينظمهم في سلك واحد ، ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة لها إله واحد كما لها شريعة واحدة : "ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون" (٢١ : ٩٢) .

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الاسلام، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟

ان الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: انه هو التوجه الى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفي ايمان واثق مطمئن بكل ماجاء من عنده على أى لسان وفي أى زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه أو بين رسول ورسول من رسله. هكذا يقول القرآن "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " (٩٨:٥) ويقول: " قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نُفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢ : ١٣٦) .

نقول اذاً ان الاسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح ان يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية؛ اذ لا يسأل عن العلاقة بين الشئ ونفسه؛ فها هنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنية.

غير أن كلمة "الاسلام" قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد، أو التي استنبطت مما جاء به؛ كما أن كلمة اليهودية أو الموسوية تخص شريعة موسى وما اشتق منها، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى وما تفرع عنها.

فالسؤال الآن انما هو عن الاسلام بمعناه العرفى الجديد، أعنى عن العلاقة بين المحمدية، وبين الموسوية والمسيحية.

وللاجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين :

- " المرحلة الاولى " فى علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة وهى فى صورتها الاولى لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شئ بفعل الزمان ولا بيد الانسان.
- " المرحلة الثانية " فى علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطراً عليها شئ من التطور.

أما فى المرحلة الأولى:

فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله: فالانجيل مصدق ومؤيد للتوراة؛ والقرآن مصدق ومؤيد للانجيل وللتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب (٥ : ٤٦ ، ٤٨) وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي اذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره (٣: ٨١) .

غير أن ها هنا سؤالاً يحق للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلى بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة انما هى تجديد للمتقدمة وتذكير بها فلا تبدل فيها معنى ولا تغير منها حكماً؛ اذ كيف يقال انها تصدق بينما هى تبدل أو تعدل. وإذا كان من قضية التصادق الكلى بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئاً من التقدم، فهل الواقع هو ذلك؟

الجواب: ليس الواقع ذلك؛ فقد جاء الانجيل بتعديل بعض أحكام التوراة؛ إذ أعلن عيسى انه جاء ليحل لبني اسرائيل بعض الذى حرّم عليهم (٣: ٥٠) وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الانجيل والتوراة، إذ أعلن أن محمداً جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرّم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم (٧: ١٥٧).

ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم ولا انكاراً لحكمة احكامه فى إبانها؛ وانما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر ٠٠٠ مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته، فقرر قصر غذائه على اللبن ؛ وجاء الثانى الى الطفل فى مرحلته التالية فقرر له طعاماً لبنياً وطعاماً نشوياً خفيفاً ؛ وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدهما فأذن له بغذاء قوى كامل، لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمناً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه.. نعم ان هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها ، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها؛ ولكن هذا التصديق على ضربين : تصديق للتقديم مع الاذن ببقائه واستمراره ؛ وتصديق له مع ابقائه فى حدود ظروفه الماضية ، ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين

من التشريعات : (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع⁽¹⁾)، (ونحوها) ، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله أى أعادت مضمونه تذكيراً به وتأكيداً له ؛ (وتشريعات موقوتة) بأجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها ، وتجئ الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة... وهذا والله أعلم هو تأويل قوله تعالى "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " .. ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشرى: عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الانشاء والتجديد، الذى يعدّ الحاضر للتطور والرقى اتجاها الى مستقبل أفضل وأكمل...

ونحن اذا نظرنا نظرة فاحصة الى سير التشريع السماوى من خلال الشرائع الثلاث نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح؛ اذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التى أرسنها الشريعة السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته:

نرى شريعة التوراة مثلاً قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك: "لا تقتل" "لا تسرق" الخ ونرى الطابع البارز فيها هو طابع تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها ... ثم نرى شريعة الانجيل تجيء بعدها فنقرر هذه المبادئ الاخلاقية وتوكدها، ثم تترقى فتزيد عليها آداباً مكملة: " لا تراء الناس بفعل الخير " "أحسن الى من اساء اليك"؛ ونرى الطابع البارز فيها هو طابع التسامح والرحمة والايثار والإحسان.. وأخيراً تجيء شريعة القرآن فنراها تقرر المبادئ كليهما فى نسق واحد: "ان الله يأمر بالعدل والاحسان" (١٦: ٩٠) مقدرة لكل منهما درجته فى ميزان القيم الأدبية ، مميزة بين المفضل ومنهما والفاضل : "وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله" (٤٢: ٤٠) "وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين" (١٦ : ١٢٦) ثم نراها وقد أضافت اليهما فصولا جديدة صاغت فيها قانون آداب اللياقة، ورسمت بها منهج السلوك الكريم فى المجتمعات الرفيعة : فى التحية، والاستئذان، والمجالسة، والمخاطبة، الى غير ذلك .. كما نراه فى سور النور والحجرات والمجادلة.

هذا مثال من أمثلة الجمع فى سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصح. والأمثلة كثيرة لا يتسع لها نطاق هذه المحاضرة.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكبة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى منه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء. وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه " جاء بالحق وصدّق المرسلين " (٣٧: ٣٧) وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان اتماماً للنعمة واكمالاً للدين: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى

(٥: ٣) وصدق رسول الله حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير : " مثلى

(1) نقول : الوصايا التسع ، ولا نقول : الوصايا العشر ؛ لأن الوصية العاشرة فى التوراة ، وهى تحريم العمل فى يوم السبت، كانت تشريعاً محلياً مؤقتاً ؛ وقد بين هذا التوقيت على لسان عيسى ومحمد عليهما السلام

ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (البخارى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين).

انها اذاً سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الالهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار.

وننتقل الآن الى المرحلة الثانية :

(المرحلة الثانية) فى بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد على هذه الشرائع، فنالها شىء من التطور والتحول:

رأينا فى المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائماً أنه جاء "مصدقاً" لما بين يديه من الكتب... ونزيد الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى؛ إذ أعلن أنه جاء أيضاً "مهيماً" على تلك الكتب (٥ : ٤٨) أى حارساً أميناً عليها... ومن قضية الحراسة الأمانة على تلك الكتب ألا يكتفى الحارس بتأييد ما خلّده التاريخ فيها من حق وخير؛ بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذى عساه أن يضاف إليها بغير حق ، وأن يبرز ما تمس اليه الحاجة من الحقائق التى عساها ان تكون قد أخفيت منها .

وهكذا كان من مهمة القرآن ان ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب " قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين" (٣ : ٩٣) كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغى تبينه مما كتّمه منها " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب" (١٥:٥).

وجملة القول أن علاقة الاسلام بالديانات السماوية فى صورتها الأولى هى علاقة تصديق وتأبيد كلى؛ وان علاقته بها فى صورتها المتطورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والاضافات الغريبة عنها.

هذا الطابع الذى تتسم به العقيدة الاسلامية، وهو طابع الانصاف والتبصر، الذى يتقاضى كل مسلم ألا يقبل جزافاً ولا ينكر جزافاً، وأن يصدر دائماً عن بصيرة وبينة فى قبوله وردّه، ليس خاصاً بموقفها من الديانات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأى وعقيدة، وكل شريعة وملة، حتى الديانات الوثنية نرى القرآن يطلها ويفصلها، فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة؛ وينحى ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

(اما بعد) فهذا هو موقف الاسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية.

وقد بقى أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية:

هل يقف منها موقف السكوت عليها، والاعضاء عنها، اكتفاء بالأمر الواقع؟

أم هل يقف موقف المحارب المقاتل، الذي لا يهدأ له بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول؛ حتى قال قائل منهم (جوتيه في كتاب أخلاق المسلمين وعوائدهم): إن المسلم أناني ، وإن الاسلام يشجعه على هذه الأنانية ، فالمسلم لا يعينه ضلّ غيره أم اهتدى ، سعد أم شقى ، ذهب الى الجنة أم الى السعير .

وأكثر الكاتيبن يجيبون بالشق الثاني؛ فالاسلام فى نظر هؤلاء يريد ان يفرض نفسه على الناس بحد السيف، والقرآن فى نظرهم يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر حيثما لقيه...

الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة فى تصورهم لموقف الاسلام.

ليس الاسلام فاتراً ولا منطوياً على نفسه كما زعم الأقولون؛ فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الاسلام؛ والنشاط فى هذه الدعوة فريضة مستمرة فى كل زمان ومكان: يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه، وبأن يبذل جهده فى هذا التبليغ: " وجاهدوهم به جهادا كبيرا " (٢٥:٥٢) والقرآن يحرض المؤمنين على هذه الدعوة " ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله " (٤١: ٣٣) بل يجعل الفلاح والنجاة وفقاً على هؤلاء الدعاة: "ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون " (١٠٤:٣) " ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر " (١٠٣ : ٢ - ٣) ولكن الاسلام فى الوقت نفسه ليس كما يزعم الأكثرون، عنيفاً ولا متعطشاً للدماء؛ وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة؛ فنبى الاسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة، بل هى مقاومة لسنة الوجود ، ومعاودة لإرادة رب الوجود: " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولا يزالون مختلفين " (١١٨:١١) " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " (١٠٣ : ١٢) " ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٩٩: ١٠) "انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء " (٢٨:٥٦) . ومن هنا نشأت القاعدة الاسلامية المحكمة المبرمة فى القرآن، قاعدة حرية العقيدة " لا اكراه فى الدين " (٢:٢٥٦) ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين " أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " (١٢٥:١٦)

على أن الاسلام لا يكتفى منا - بعد قيامنا بواجب النصح والارشاد - لا يكتفى منا بهذا الموقف العملى السلبى، وهو عدم اكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات ايجابية نكرم بها الانسانية فى شخص غير المسلمين: ...

هل ترى أسمى وأنبى من تلك الوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن فى معاملة الوثنية؛ التي هى أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوى. اقرأ فى سورة التوبة " وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا

فحسب ؛ ولا يكتفى منا بأن نرشدهم الى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى ؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا الى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة ...

ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التى لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين فى الحقوق العامة: " لهم مالنا وعليهم ما علينا " .

ثم هل ترى أوسع أفقاً ، وأرحب صدرأ ، وأسبق الى الكرم ، وأقرب الى تحقيق السلام الدولى والتعايش السلمى بين الأمم ، من تلك الدعوة القرآنية ، التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الاسلامية ، وبين الأمم التى لاتدين بدينها ، ولا تتحاكم الى قوانينها - لا تكتفى فى تحديد هذه العلاقة- بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها " (٨:٦١) " فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله عليكم سييلاً " (٤:٩٠) بل تندب المسلمين الى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم. ان الله يحب المقسطين" (٨:٦٠) .

ليس هذا هو كل شئ فى تحديد الموقف الانسانى النبيل الذى يقفه الإسلام عملياً من غير أتباعه ولضيق المقام نكتفى بكلمة واحدة:

إن الاسلام لا يتأنى لحظة واحدة عن مدّ يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة فى سبيل التعاون على اقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، ولو على شروط يبدو فيها بعض الاجحاف... ناهيك بالمثل الرائع الذى ضربه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى، حين قال فى الحديدية: " والله لا تدعونى قريش إلى خطة توصل بها الأرحام وتعظم فيها الحرمات الا أعطيتهم اياها " .

فهذا هو مبدأ التعاون العالمى على السلام، يقرره نبي الإسلام، ورسول السلام.

فى ٢٢ من ربيع الثانى ١٣٧٧ هـ

(١٤/١١/١٩٥٧م)